١٠

دلالة الأصل اللغوي عند الحكيم الترمذي (ت٣٢٠هـ) في كتابه تحصيل نظائر القرآن

دراسة في دلالة المفردة القرآنية

د. حيدر جبار دفتر

جامعة القادسية

كلية التربية – قسم علوم القرآن والتربية الإسلامية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي-الجامعة العراقية
كلية التربية للبنات

الملخص

تناول البحث فكرة الأصل اللغوي بوصفه منهجا شاع عند القدماء وتطور عند المحدثين، والبحث قائم على بيان هذا الأصل عند الحكيم الترمذي (ت٣٢٠هـ)في كتابه (تحصيل نظائر القرآن)، لبيان دلالة المفردة القرآنية، ومدى فاعلية هذه الكلمات في استعمالاتها المختلفة، أي في سياقاتها القرآنية المتنوعة للوصول إلى دلالة موحدة سواء أكانت هذه الدلالة واضحة وبينة أم بها حاجة إلى جهد وتأويل بحسب مرجعيات الحكيم الترمذي اللغوية ،والعقدية والأخلاقية، وانتهى البحث إلى أن الحكيم الترمذي يعد من المؤسسين لهذا المنهج الذي سار عليه جملة من المفسرين واللغويين فيما بعد.

Abstract

The research deals with the idea of the linguistic origin as a popular method of the ancients and the development of the modernists. The research is based on the statement of this origin in al-Hakim al-Tirmidhi (T 320H) in his book (The collection of the isotopes of the Qur'an), to show the meaning of the Quranic singularity and the effectiveness of these words in their different uses, In order to reach a unified indication whether this indication is clear and clear or whether there is a need for effort and interpretation according to the terms of reference of Al-Hakim al-Tirmidhi, linguistic, and doctrinal and moral. The research concluded that al-Hakim al-Tirmidhi is one of the founders of this approach, which was followed by a group of interpreters and linguists later.

المقدمة

الحمد لله حمداً يليق بجلاله وصلى الله على نبيه محمد واله...

أما بعد: فالحديث عن الأصل اللغوي متشعب ومتناثر في بطون المصادر والمراجع عند القدماء والمحدثين، بدءاً من الإشارات الأولى عند اللغويين والمعجميين ـ وأزعم أنَّه شكل ظاهرة عند المحدثين تستحق الوقوف ولاسيما عند الدكتورة بنت الشاطىء في تفسيرها البياني، وعند الشيخ المصطفوي في تحقيقه لكلمات القرآن، وعند الشيخ عبد الحميد الفراهي في معجمه القرآني، وعند الدكتور محمد حسن حسن جبل في معجمه الإشتقاقي المؤصَّل لألفاظ القرآن .

والحق أنَّني حاولت جاهدا أن أقف على هذه الظاهرة اللغوية عند شخصية من الأوائل ألا وهو (الحكيم الترمذي) في كتابه(تحصيل نظائر القرآن) الذي اتسم بالمعرفة اللغوية والروائية والصوفية والأخلاقية، وكانت له مؤلفات تشهد على ذلك، فسعيت مخلصاً لتبيين هذه الظاهرة عنده وسميتها(دلالة الأصل اللغوي) على الرغم من أنَّ هذا المصطلح لم يكن متعارفاً عندهم بهذه التسمية سوى أنَّهم كانوا يشيرون إلى أصل المادة اللغوية ويرجعون ماتفرع منها من معانٍ متعددة إلى هذا الأصل حتى استقر هذا المصطلح إلى حدٍّ ما عند ابن فارس في معجمه (مقاييس اللغة) فكانت المادة تتعدد إلى أصول عدة حتى أوصلها ابن فارس إلى خمسة أصول، وقيل إنَّ ابن فارس قد أفاد في ذلك من الحكيم الترمذي ومن سبقه في ذلك.

ومما يمكن قوله في المقام إنَّ الحكيم الترمذي في كتابه محلّ البحث كان يتبنى فكرة الأصل اللغوي بشكل واضح، ويحاول أن يرجع كلّ المعاني اللغوية والمعرفية والأخلاقية والفلسفية إلى هذا الأصل، وكان (رحمه الله) يبذل قصارى جهده في ليِّ عنق النصوص من أجل هذا الأصل الذي ذهب إليه .

ومما يمكن أن يعدُّ صعوبة في البحث أنَّ لغة الشيخ الترمذي كانت متأثرة بلغة المتصوفة وعباراته محكمة ومسبوكة وتحتاج إلى مدقق ومحقق من أجل إظهار مدى فاعلية اللفظ في النصوص والسياقات المختلفة، وإيجاد قطب مشترك تدور عليه المعاني المتعددة.

لذا حاولت أن اقف في المبحث الأول على فكرة الأصل اللغوي، ومنهج الشيخ في تناول هذه الفكرة في كتابه محلِّ البحث، أمَّا المبحث الثاني فجاء ليعالج ظاهرة الأصل اللغوي في المفردات القرآنية المتعددة التي عالجها كتابه، وقد تعددت تلك المفردات بين الفعلية والأسمية والحرفية والظرفية.

وفي الختام أسأل الله السداد وحسن العاقبة

المبحث الأول

ملامح الأصل اللغوي عند الحكيم الترمذي (مقاربة في الفكرة والمنهج)

الأصل اللغوي فكرة شاعت عند جملة من العلماء القدامى والمحدثين، سوى أنها لم تكن مصطلحا قارّاً ثابتا ومتعارفا عليه، فالحديث عن هذا المنهج يتناقض تماماً مع الحديث عن الترادف والمشترك اللفظي والأضداد، بل إنّ فكرة الأصل اللغوي جاءت لترفض هذا التوسع الدلالي الذي أدى إلى كثرة الاستعمال، والتداول ،وكذلك الاشتراك والتضاد .

ولعل البذور الأُول لهذا المنهج قائمة على تلك المساجلات التي حصلت بين الأوائل في رفض الترادف، والاشتراك، والأضداد بدءاً من ابن درستويه (ت ٣٤٧هـ)[1]، وغيره من العلماء حتى شاعت وتوسعت، ودخلت ميدان البحث اللغوي عند ابن جني (ت ٣٩٢هـ) في حديثه عن الاشتقاق، ولعل فكرة التقليبات التي جاء بها الخليل بن احمد الفراهيدي (ت١٧٥هـ) في معجمه العين هي الاشارة الأصل في إرجاع المعاني المتعددة الى أصل واحد تدور عليه غير أنه لم يصرح بذلك .

وحين نريد الوقوف على بعض كتب الوجوه والنظائر بدءا من مقاتل بن سليمان المتوفى (١٥٠ هـ) ثم التصاريف ليحيى بن سلام (ت ٢٠٠هـ) ومن بعدهم كان تحصيل نظائر القرآن للحكيم الترمذي (ت٣٢٠هـ)، ثم الثعالبي (ت٤٢٩هـ)، فالدامغاني (ت٤٧٦ هـ)، وابن الجوزي (ت٥٩٢هـ)، وابن العماد المصري (ت ٨٨٧هـ) وغيرهم لم نجد ولو إشارة لفكرة الأصل اللغوي عند هؤلاء اللغويين في هذه الكتب بنظائرها المتعلقة بتعدد الألفاظ، وبوجوهها القائمة على تعدد المعاني ((فالنظائر اسم للألفاظ، والوجوه اسم للمعاني))[2]، وهذا ما دعا الحكيم الترمذي إلى أن يسلك مسلكا آخر في الإشارة إلى تداخل هذه الأُصول، والألفاظ بين معانيها ببعضها، إذ يقول في مقدمة كتابه_ في إشارة منه إلى سبب تأليفه كتابه تحصيل نظائر القرآن)): فإذا نظرنا في هذا الكتاب المؤلف في نظائر القرآن *، فوجدنا الكلمة الواحدة مفسرة على وجوه، فتدبرنا ذلك، فإذا التفسير الذي فسره إنما اختلفت الألفاظ في تفسيره، ومرجع ذلك إلى كلمة واحدة ،وإنما انشعبت حتى اختلفت ألفاظها الظاهرة الأحوال)) [3]، معللا

(١) يرى أحد الباحثين أنَ الحكيم الترمذي يذهب مذهب معاصره ابن درستويه في منع المشترك اللفظي، ينظر . المشترك اللفظي في القرآن الكريم / د.عبد العال سالم مكرم: ١٤٠.

(٢) الوجوه والنظائر / هارون بن موسى القارئ (مقدمة المحقق): ٨. وللزركشي (ت٧٩٤هـ) رأي مختلف في هذا التعريف إذ قال: ((قيل النظائر في اللفظ والوجوه في المعاني وضعف ؛لأنه لو أريد هذا لكان الجمع في الألفاظ المشتركة وهم يذكرون في تلك الكتب اللفظ الذى معناه واحد في مواضع كثيرة، فيجعلون الوجوه نوعا لأقسام والنظائر نوعا آخر كالأمثال))، البرهان في علوم القرآن: ١/ ١٠٢ .

(٣) *يقصد بعبارته (الكتاب المؤلف في نظائر القرآن) أحد

ذلك بقوله: ((التي إنما نطق الكتاب بتلك الألفاظ من أجل الحادث في ذلك الوقت))[١] .

والحق أن تسمية الأصل اللغوي هي التسمية الأثيرة عند القدماء ولاسيما ابن فارس (ت٣٩٥هـ) في معجمه المقاييس، والمعنى المقصود هو الأصل الذي تعود اليه معاني اشتقاقات الكلمة الواحدة، وهذا الأمر سيقودنا إلى معرفة معنى الاشتقاق ،أو كيفية استخراج الأصل منه، يقول ابن جني: ((فهو أن تأخذ أصلا من الأصول الثلاثية فتعقد عليه وعلى تقاليبه الستة معنى واحدا، تجتمع التراكيب الستة، وما يتصرف من كل واحد منها عليه ،وإن تباعد شيء من ذلك عنه رُدَّ بلطف الصنعة والتأويل اليه))[٢]، أما ابن فارس فقد نظر إلى المعاني الخاصة لتلك الألفاظ وحاول أنْ يجدَ معنى واحدا لجميع الألفاظ فردَّ بعضها إلى معنيين، أو ثلاثة، أو أربعة، فتعددت دلالات الألفاظ، وهذا ما يدعو إليه الاستعمال اللغوي، وقد سبقهم في ذلك ابن قتيبة(٢٧٦هـ) في قوله: ((أصل الظلم في كلام العرب: وضع الشيء في غير موضعه، ويقال: من أشبه أباه فما ظُلِمَ، أي: فما وضع الشيء في غير موضعه، وظلم السقاء (قربة اللبن) هو أن يشرب قبل إدراكه (أي قبل أن يروب وتخرج زبدته)، وظلم الجزور: أن يعتبط، أي: ينحر من غير علة . وأرض مظلومة أي حفرت وليست موضع حفر))[٣] .

وواضح من ذلك أن الأصل اللغوي للجذر (ظلم) هو: (وضع الشيء في غير موضعه)، وقد وقف ابن قتيبة على الدلالة الأصل في ذلك، ثم فسر في ضوئها أربعة من استعمالاته . وقد وافقه ابن فارس في تعيين هذه الدلالة المحورية لـ(ظلم) مضيفا إليها دلالة محورية أخرى هي (خلاف الضياء والنور) على منهجه في تعدد الأصل للجذر الواحد[٤]، وفعل كراع النمل (ت٣١٠هـ)[٥]، والزجاجي (ت٣٤٨هـ)[٦]، كما فعل ابن قتيبة في بيان بعض الأصول اللغوية الأخر، وقد أفاد من ذلك ابن فارس أيضا .

والحق أنّ الاشتقاق خصيصة محورية تمس كلَّ كَلِم العربية، ويبدو أنَّ الحكيم الترمذي قد اطَّلع على المؤلفات التي سبقته في هذا الحقل مثل (الأشباه والنظائر) لمقاتل، (والوجوه والنظائر) لهارون، (والتصاريف) ليحيى بن سلام، وهذه المؤلفات سارت على نمط واحد والتزمت منهجا معينا لم تَحِدْ عنه في معالجتها لظاهرة الكلمات المشتركة في القرآن الكريم.

ومن الواضح أنّ الأصل اللغوي يباين أنواع

كتب الوجوه والنظائر التي اطلع عليها، ولم يذكر اسم الكتاب، او اسم المؤلف .
تحصيل نظائر القرآن: ١٩ .
(١) نفسه: الصفحة نفسها
(٢) الخصائص: ٢/ ١٣٦.
(٣) تأويل مشكل القرآن: ٤٦٧.
(٤) ينظر: المقاييس: (ظلم): ٣/ ٤٦٨.
(٥) ينظر: المنتخب من غريب كلام العرب :٢/ ٦٦٤.
(٦) ينظر: تفسير رسالة أدب الكاتب: ٩٨.

المعنى الأُخرى التي يعنى بها الآخرون، فهو عام يشمل استعمالات الجذر كلها، كما أنه ((تجريدي مستخلص من الاستعمالات، لا يتعامل به أهل اللغة مباشرة، وإن كان يمثل الأساس غير الواعي الذي تنهض عليه المعاني الجزئية الواقعية لاستعمالات الجذور ،وتتفرع وتستحدث منه كذلك))[1] .

ويبدو أن منهج الحكيم الترمذي منهج متميز، لم يسبق إليه، ولم يحاول أن يقلد من سبقه في تناول الوجوه والنظائر ((ومنهجه يدور حول محور واحد، وهو أنه لا اشتراك في الكلمة القرآنية، فالكلمة القرآنية لها معنى واحد في الوضع اللغوي، فمهما ابتعدت عنه، واتجهت إلى معاني أخرى متنوعة، ولها دلالات متباينة، فإنها دائما مشدودة إلى المعنى اللغوي الذي وضع لها))[2].

ويظهر من خلال الاستقراء أنّ الأصل اللغوي، أو المعنى المحوري هو معنى تجريدي بمعنى أنه يستخلص من كل استعمالات الجذر اللغوي، أو أنه من صنع اللغوي نفسه بمعنى أنه قد لا يكون مصرحا به في المعاجم العربية، أو أن هذا المعنى قد يتحقق في بعض الاستعمالات بصورة صريحة مباشرة، وفي بعضها الآخر يتحقق بصورة تحتاج الى تأويل بدرجة ما[3].

ويبدو أن هذا الاستقراء في إظهار الدلالة الأصل من خلال النصوص القرآنية، والحديثية ينطبق على كتاب التحصيل تمام الانطباق، بلحاظ أن الجذر الذي تدور عليه المعاني المختلفة بسياقاتها المختلفة أحيانا يكون مصرحا به، وأخرى يخفى على غير المختص، وبدرجة ما يحتاج الى تأويل وخروج عن المألوف لتحقيق لوازم الدلالة الأخرى، يقول محقق كتاب تحصيل نظائر القرآن: ((إنّ الترمذي قد سلك في ذلك منهج التحليل اللغوي المعتمد على الاستشهاد بالقرآن الكريم، في كل ما يقصد من القواعد، وبعد أنّ يوضح اشتقاق الكلمة وأصلها يعمد إلى استعمالاتها في القرآن الكريم بمعان متعددة، ولكنها تدور حول أصل واحد))[4]،ومع كل ذلك فقد يرى أحد الباحثين أن الحكيم الترمذي يتكلف في كل الكلمات التي تناولها قائلا: ((فنحن لا نستطيع أن نعرف المعنى الأول الذي وضع للكلمة معرفة دقيقة، فقد يكون المعنى الأول هو المعنى المتطور عن المعنى الثاني وهكذا، ثم إنّ الألفاظ يختلف بعضها من قبيلة إلى قبيلة، ومن عصر الى عصر))[5].

وزاد المحقق على ذلك أنّ الترمذي قد لقي أكابر الصوفية ،وأخذ عنهم ما شاء له أن يأخذ ،واطلع على جميع ثقافات عصره [6] . فهذا الكتاب ((يعد تأليفاً فريداً في الوجوه والنظائر اعتمد فيه الرجل

(١) الدلالة المحورية في معجم مقاييس اللغة: د. عبد الكريم محمد حسن جبل:١٢.
(٢) المشترك اللفظي في القرآن الكريم: عبد العال :١٣٩.
(٣) ينظر: الدلالة المحورية في معجم مقاييس اللغة: ١٠.
(٤) تحصيل النظائر ،مقدمة المحقق/ ١٥.
(٥) المشترك اللفظي/ عبد العال سالم مكرم: ١٤٤.
(٦) تحصيل نظائر القرآن :مقدمة المحقق:١٠.

على مذهب من لا يرى الاشتراك اللفظي في اللغة الى جانب الصوفية التي تدعو إلى تهذيب النفس، وتطهير القلب، وتصفية الروح))[١].وقد أدت اللغة دوراً في مؤلفات الحكيم الترمذي ،فبعضها يقوم على المنهج الذي اختطه لنفسه ومن أهمها كتاباه (الفروق ومنع الترادف) و(وتحصيل نظائر القرآن) وكلاهما مكمل للآخر، ويقومان على فكرة واحدة ،هي نفي وقوع الترادف بين الألفاظ ، وبعضها الآخر قائم على مؤلفاته الصوفية والأخلاقية مثل(الرياضة وأدب النفس)، و (بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللُّب).

وأحسب أن ما أشاروا اليه من التأثر بلغة المتصوفة بات واضحا في تناوله لكثير من الألفاظ التي سنقف عندها في المبحث الثاني ،وأثر ذلك بيّن في استطراده في الحديث عن هذه الألفاظ بلغة خاصة ومصطلحات مختلفة لا يدركها إلا أهل هذا الفن ،فاللغة العادية عاجزة عن الوفاء بحق التعبير عن مواجد الصوفية ومعارفهم، ولها مفردات ودلالات اتفاقية ثابتة لا تتغير، وهي عاجزة عن أداء ما يريد القوم من معان جديدة . على الرغم من القول إنّ المخزون الدلالي لمفردات اللغة يكسبها القدرة الواسعة على احتمال التعددية في المعنى دونما تناقض، أو تعارض في كثير من الأحيان . وهذا ما دعا النفَّري(ت٣٦٦هـ) إلى القول: ((إذا اتسعت الرؤية ضاقت العبارة))[٢]. فضيق العبارة متأت من عدم قدرة اللغة على إيفاء حق المعنى، وكذلك استعمال المفردات والمصطلحات التي عادة ما يكون ظاهرها ليس له صلة بأصل الفكرة والموضوع ما يدفع بالقارئ إلى الحكم بالخروج عن أصل الظاهرة.

وفي كل ذلك يظهر الترمذي مخالفا تماما لما ذهب إليه أصحاب الوجوه والنظائر، و يمكن أن يعد من المؤسسين لفكرة الأصل اللغوي التي عمل جاهدا على إثباتها وإظهارها للعيان على الرغم من صعوبة التعامل مع الاستعمال القرآني في رد دلالات سياقات النصوص المحملة بأنواع المعاني إلى دلالة واحدة مستجمعة لاحتمالات الدلالات المتعددة، وكذلك يرد الترمذي على من يقول إنّ الترادف يوسع دائرة التعبير ويسهل مجال النظم والنثر، فضلا عن أنه يعمل على تأدية المقصود بإحدى العبارتين عند تساوي الأخرى، فهو يرفض هذا وينهج نهجا استقرائيا يثبت فيه نقيض ذلك، وهذه الفكرة دفعته إلى تأليف كتابه (الفروق)، وكذلك يرى أن اللفظ مهما تعدد وتغير معناه فهو يدور في فلك واحد وحقيقة واحدة، وهذا ما دار عليه كتابه(تحصيل نظائر القران). وهذا يعني أن مباحثه في كلا الكتابين تتعلق بدلالة الألفاظ والمعاني.

ولم يسلم الحكيم الترمذي من الذم فيما جاء به، فقد علق بعض المحدثين على ذلك، وعدّ

(١) المشترك اللفظي في القران:عبد العال: ١٤٧.

(٢) المواقف والمخاطبات: ٥١.

منهجه تقييدا وإنكارا لمسألة الاشتراك اللفظي، فقال: ((والواقع أن الحكيم الترمذي في مذهبه الذي ذهب إليه ضيق واسع، وحاول أن يحبس البحر المتلاطم في المعاني القرآنية في قمقم سليمان، فالألفاظ محدودة والمعاني غير متناهية ،لأنها تتطور باستمرار وتتلون بلون البيئة التي تعيش فيها)) [1]. وقد فات الباحث أن للذوق والتدبر والدقة في ظواهر الكلمات تأثيرا في تشخيص الأصل الواحد وتعيينه وتمييز خصوصياته . ولذا يرى أحد الباحثين أن الاشتراك اللفظي بمعنى كون اللفظ مشتركا بين معنيين أو معاني بنحو الدلالة الحقيقية غير موجود في كلمات العرب، ولاسيما في كلمات القرآن الكريم، وكل ما يدعى كونه منه فهو من باب الاشتراك المعنوي [2]، أو من باب الاستعمال في المصاديق وهذا هو الأغلب [3]. وقد خفي هذا المعنى على أغلب أهل التأليف من اللغويين والأدباء والمفسرين.

ولا يخفى على القارئ اللبيب أنّ الحكيم الترمذي اعتمد في منهجه على المعجمات اللغوية في بيان الدلالة الأصل وتحديد معناها، ومن ثمّ الانتقال إلى الوجوه الأخر التي ذُكِرت عند أصحاب الوجوه باحثا عن الجامع المشترك بين المعاني التي تدور في فلك هذه الألفاظ، مستدلا ومستشهدا على ما يقول بالنصوص القرآنية، والأحاديث النبوية التي تدفعه باتجاه توثيق هذه الدلالة الأصل، يزاد على ذلك ما يطمئن إليه الحكيم من دلالات قلبية وفيوضات ربانية، فقد كان متأثراً بعلم الأخلاق، والتصوف وبطريقة المريدين، موظفا ذلك في بيان دلالات الألفاظ القرآنية، ومؤولا أحيانا أخر بما ينسجم مع المراد مع بعد الظاهر والمآب.

(١) المشترك اللفظي: عبد العال: ١٤٣.

(٢) لم يذكر معظم الأصوليين تعريف المشترك المعنوي، وانصّب تركيزهم على صنوه اللفظي. وتطرق قليل منهم إلى ذكره عند تقسيم اللفظ الكلي إلى (المتواطئ) و(المُشَكِّك)؛ لانقسام المشترك المعنوي على هذين المفهومين. فإذا اتحد اللفظ ومعناه واشترك في مفهوم لفظه كثير فهو كُلّي، فإن تفاوتت أفراد الكلي بقلة وكثرة كنور السراج والشمس، أو بإمكان التغيّر واستحالته كالوجود بالنسبة إلى الجوهر والعرض، أو بشدّة وضعف كبياض الثلج وبياض العاج، أو يتقدم ويتأخر كالوجود للخالق والمخلوق، فهذا القسم من أقسام الكلي وهو (المُشَكِّك)؛ لأنّ الناظر فيه يتشكك: أمتواطئ هو لوجود الكلي في أفراده أم مشترك لتغايرها. أمّا إذا لم تتفاوت أفراد الكلي فهو (المتواطئ) ؛ لأنّه الذي تتساوى أفراده. باعتبار ذلك الكلي الذي تشاركت فيه، كـ(الإنسان) بالإضافة إلى أفراده، فإنّ الكلي فيها – وهو الحيوانية والناطقية– لا يتفاوت فيها بزيادة ولا نقص. والمتواطئ مشتق من التواطئ الذي هو التوافق؛ يقال: تواطأ القوم على الأمير إذا اتفقوا عليه. ولمّا توافقت محالّ مسمى هذا اللفظ في مسمّاه سمّي متواطئاً.

وصرف بعض الأصوليين نظرهم إلى وحدة الوضع والمفهوم الكلي في المشترك المعنوي دون تعدد أشخاصه وأنواعه، فأخرجوه من الاشتراك أصلاً. يقول محمد تقي الحكيم: ((الحقيقة أنني لا أعرف وجهاً لإدخال الاشتراك المعنوي ضمن التعريف ولا لتسميته اشتراكاً مع وحدة المعنى واتحاد الوضع فيه اللهم إلاّ أن يكون مجرداً اصطلاح)). من تجارب الأصوليين في المجالات اللغوية: ٩١.

(٣) ينظر: التحقيق في كلمات القرآن: العلامة المصطفوي:١/ ١٠.

المبحث الثاني
تعدد الصيغ ومحورية الدلالة

١ــ في الأسماء:

لفظة (الهدى)

قال الترمذي في لفظة (الهدى) إنها ((على ثمانية عشر وجها، فالحاصل من هذه الكلمة: كلمة واحدة فقط، وذلك أنَّ الهدى :هو الميل، يقال في اللغة: رأيت فلانا يتهادى في مشيته، أي يتمايل))[١]. وزاد الحكيم الترمذي قائلا: ((ومنه قوله تعالى: {إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ} الأعراف: ١٥٦، أي ملنا اليك، ومنه سميت الهدية هدية: هدية ؛ لأنّها تميل بالقلب إلى مهديها ، وإن القلب أمير على الجوارح ، فإذا هداه الله لنوره: أي أماله إليه لنوره: اهتدى أي استمال ، وقد قال في تنزيله {يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ} النور: ٣٥، فهذا أصل الكلمة)) [٢]،ثم أخذ الحكيم الترمذي يذكر الوجوه التي ذكرها أصحاب كتب الوجوه والنظائر للفظة (الهدى)، وهي: البيان، والإسلام، والتوحيد، والدين، والدعاء، والبصيرة...معلقا على كل واحدة من هذه الوجوه بتعليقة مرتبطة بالأصل الذي أشار اليه وهو الميل. ومبينا أن هذه الوجوه جميعا لا تحمل معاني مستقلة عن معناها اللغوي الوضعي، لأنها كلها تنبع من منبع واحد .

وإذا رجعنا إلى معاجم اللغة وجدنا الخليل ينقل أن التّهادي ((مشي في تمايل يميناً وشمالاً كمشي النساء ،والإبل الثقال...)) [٣]. ونقل الجوهري(ت٣٩٨هـ) هذا المعنى أي التمايل بعد ذكره لجملة من المعاني اللغوية للفظة الهدى قائلا: ((الهدى: الرشاد والدلالة ...وهديته الطريق والبيت هداية، أي عرفته وجاء فلان يُهادى بين اثنين ، إذا كان يمشي بينهما معتمدا عليهما من ضعفه وتمايله ... وكذلك المرأة، إذا تمايلت في مشيتها من غير أن يماشيها أحد)) [٤]. أما ابن فارس فقد جاء في مقاييسه بمعنى الرشاد والتمايل أيضا فهو يقول: ((هديته الطريق هداية ، أي تقدمته لأرشده، وكل متقدم لذلك هادٍ ... والهادية العصا ؛ لأنَّها تتقدم ممسكها كأنها ترشده وجاء فلان يهادي بين اثنين، إذا كان يمشي بينهما معتمدا عليهما... والباب في هذا القياس كله واحد)) [٥]. وتبعهم في ذلك الفيروز آبادي[٦].

وفي أقوال المعجميين المتقدمة إلماح إلى أن جميع

(١) تحصيل نظائر القرآن:١٩.، تذكر كتب الوجوه والنظائر (للهدى) أربعة وعشرين وجها، ينظر: الأشباه والنظائر: مقاتل: ٨٩. والتصاريف: ٩٦، والأشباه والنظائر: الثعالبي: ٢٧٠، والاصلاح: ٤٧٣، والنزهة: ٦٢٥، والمنتخب: ٢٤١، والكشف: ٢٦.

(٢) التحصيل: ٢٠.

(٣) العين: ٣/ ١٨٧٦.

(٤) الصحاح: ١١٦٧-١١٦٨.

(٥) مقاييس اللغة: ١٠٢٧.

(٦) ينظر: القاموس المحيط: ١٣٤٦.

*ولا نعرف سببا لذلك، فقد اكتفى الترمذي بأحد المعنيين، دون الاشارة لا من قريب ولا من بعيد الى المعنى الاول، ولعل مراده أن الإرشاد ،والرشد، والترشد لا يتحقق إلا مع تحقق الميل سلفا، فالميل أصل عنده والرشاد متفرع عنه.

الوجوه المذكورة تؤول الى الرشاد والميل حقيقة أو مجازا ، والظاهر أن في الرشاد ميلا إن كان ذلك الميل يحتاج إلى قرينة توضحه ، فالميل تارة يكون إلى حق وأخرى إلى باطل.

والآن لنبدأ بالمعاني أو الوجوه التي ردها الترمذي إلى أصل واحد، وهو الميل من دون أن يشير إلى المعنى الأول الذي ذكرته المعجمات وهو الإرشاد أو الرشاد في لفظة الهدى*، إذ قال: ((فإنما صار الهدى بيانا في ذلك المكان ؛ لأنَّ البيان إذا وضح على القلب بنور العلم: مدّ ذلك النور القلب إلى ذلك الشيء وأماله إليه)) [١]. ويرى أصحاب كتب الوجوه والنظائر أنَّ لفظة الهدى في قوله تعالى: { إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ }:الانسان: ٣٦، قد جاءت لمعنى (البيان) وكذلك قوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ البقرة: ٦، ويزيدون في ذلك بعض الآيات القرآنية التي جاءت فيها لفظة الهدى بهذا المعنى[٢].

ويبدو أنَّ أصحاب الوجوه والنظائر قد اتفقوا على دلالة هذه المعاني، فقد نقل بعضهم عن بعضهم الآخر حرفياً من دون أن يزيد المتأخر معنى، أو يعلق بكلمة، أو أن يُظهر لنا السبب الذي دعاه إلى أن يحمل معنى (الهدى) على (البيان) في هذه الآيات القرآنية المتقدمة. ولو رجعنا الى بعض كتب التفسير لبيان دلالة (الهدى) في بعض الآيات القرآنية التي ذكروها لوجدنا الزمخشري (ت٥٣٨هـ) مثلا أنه يقول في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ ﴾الإنسان:٣، بمعنى عرّفناه السبيل[٣]. وليست لمعنى البيان، ويرى أحد الباحثين أن كثيرا من هذه الوجوه لم تكن أكثر من تأويل للمعنى العام بحسب ما يناسب السياق، حتى إن الوجه الواحد تختلف عليه الآراء بين المفسرين، بل عند المفسر الواحد منهم[٤]. مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ الفاتحة: ٦، يقول أبو حيان الأندلسي (ت٧٤٥هـ):((معنى اهدنا أرشدنا، أو وفقنا، أو قدمنا، أو الهمنا، أو بيّن لنا، أو ثبتنا أقوال أكثرها عن ابن عباس، وآخرها عن علي وأبي)) [٥]. وهذا دليل على أن ابن عباس كان يريد المعنى الإجمالي للكلمة في سياقها، وليس تحديد رديف مطابق للمعنى في موضعه.

ويرى بعضهم أن الوجوه التي خرجت إليها لفظة (الهدى) هي ألفاظ مرادفة للهدى ،وليست أوجها لها، والألفاظ المترادفة يصح أن يقع بعضها موقع بعض لتقارب معانيها، لذلك جاز أن تكون معاني للشاهد القرآني نفسه[٦].وقد سبقه الى ذلك جملة

(١) تحصيل: ٢٠.

(٢) ينظر: الوجوه والنظائر: هارون: ٢٨، والوجوه والنظائر: الدامغاني: ٢/ ٣٠٣.

(٣) ينظر: الكشاف: ٤/ ٦٥٤.

(٤) ينظر:الاشتراك اللفظي: المنجد: ٢٢٦.

(٥) البحر المحيط: ١/ ٢٧.

(٦) ينظر: لا وجوه ولا نظائر في كتب الوجوه والنظائر: د. فتحي/ ٥٧.يقول د. فتحي عبد الجبار: ((ولا أعني بالترادف هو التطابق في المعنى، فهذا ما لاوجود له في كتاب الله ،فهي الفاظ مترادفة، بمعنى أنها متقاربة في معانيها، وليست متطابقة، وهذا يعني أن لكل منها معناه الخاص به

من العلماء، يقول الفيروز آبادي(ت٨١٧هـ): ((قال تعالى:(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) والمعنى: أرشدنا، وقيل: أي قدمنا اليه، وقيل ثبتنا عليه ؛ وقيل وفقنا، وقيل: أرزقنا، وكلها أقوال متقاربة)) [1].وزاد ابن عطية (ت٥٤٦هـ) قائلا: ((الهداية في اللغة: الإرشاد لكنها تتصرف على وجوه يعبر عنها المفسرون بغير لفظ الإرشاد، وكلها إذا تؤملت رجعت اليه، وهو صحيح، ولم يذكر أهل اللغة فيها إلا أنها بمعنى الإرشاد، والأصل عدم الاشتراك)) [2]، فهذه الوجوه لا تمثل معاني عبر عنها بلفظ واحد، وهو لفظ الهدى، بل لكل منها لفظه الخاص به والدال عليه والأصل في ذلك عدم الاشتراك.

ولنا أن نتساءل كيف استطاع الحكيم الترمذي أن يعمم دلالة معينة على جميع هذه الوجوه والمعاني؟ وهل هذا قائم على استقراء لجميع السياقات اللغوية والقرآنية ؟ وهل يصح لَيُّ عنق النصوص بما يتناسب مع المعنى الذي يراه أصلا لجميع هذه المعاني ؟ . يبدو أن الذي دفع الترمذي الى ذلك جملة من الأمور أولها: أنه كان يتبنى فكرة عدم الاشتراك في اللغة، فضلا عن السياقات القرآنية، وهذا يعني أن لكل لفظة قرآنية دلالتها الخاصة بها بلحاظ سياقها والقرائن التي تحفُّ بها، وبعد الاستقراء التام لسياق النصوص القرآنية وجد أن الضابط العام أو المحور الذي تدور في فلكه هذه الدلالات يعود الى جامع مشترك وأصل وحيد، وإن كان في بعضها يحتاج الى شيء من التأمل وأحيانا الى التأول، وهذا ما تفرد به الترمذي، اذ لم أجد ممن سبقه ولا ممن جاء بعده قد تبنى فكرة الأصل اللغوي في كتب الوجوه والنظائر، ولعل عنوان الكتاب قد صيغ صياغة مقصودة لو أنعمنا النظر فيها لوجدنا أن الترمذي سماه (تحصيل نظائر القرآن) ولم يكن هناك ذكر للوجوه في العنوان، فلا وجوه في كتب الوجوه عنده، أما النظائر فهي ليست نظائر لفظية، بل معنوية تدور في محور واحد أصله قائم ومتحقق، ومصاديقه الجزئية متحققة في سياقات مختلفة، أراد لها الترمذي أن تحقق منظومة دلالية موضوعية، والذي ميز الترمذي عن غيره من أصحاب الوجوه والنظائر أنَّه قد وضع أصلا دلاليا وضعيا مستمدا من كتب اللغة والمعجمات، وحاول جاهدا أن يجد مصاديق لهذا الأصل . أما أصحاب كتب الوجوه والنظائر الأُخر على سعتها قد سلبوا من اللفظ دلالته التي وضعتها له لغة العرب، وجرت على لسانهم، بل جعلوه كالذي فقد أصله ونسبه، لذلك راحوا ينسبون اليه أية دلالة كانت جاز أن يحملها السياق على وجه العموم، وتركوا التحري عن دلالته الحقيقية على وجه الدقة والتحديد ؛لأنَّ جميع هذه الوجوه تمثل عندهم معان حقيقية وأصلية، وهم بذلك قد عاملوه معاملة المشترك اللفظي . والحق أن هذه الألفاظ ليست من المشترك وهذا ما ذهب اليه الترمذي، ففكرة الأصل اللغوي قائمة على عدم وجود الاشتراك في اللغة

))لا وجوه ولا نظائر: ٥٨.

(١) بصائر ذوي التمييز: ٥/ ٣١٢.

(٢) المحرر الوجيز: ١/ ٧٢.

فضلا عن ألفاظ القرآن الكريم . فكثرة الاستعمال واقتراب المعاني من بعضها واحتمالية الدلالة هي التي خلقت أفقا واسعا وإن كان خاصا بأهله للتمسك ببعض الدلالات التي تخفى على الكثير.

وإذا رجعنا الى ما ذكره الترمذي في المعنى الثاني للفظة (الهدى) وهو (الإسلام) نجده يقول: ((وإنما صار الهدى في المكان الآخر (الإسلام) ؛لأنَّه إذا مال القلب بذلك النور الى ذلك الشيء الذي تبين له: انقاد العبد وأسلم، ومدّ عنقا الى قبوله)) (١). وكذلك في معنى(التوحيد) إذ يقول: ((وإنما صار الهدى التوحيد في المكان الآخر ؛لأنه إذا مال القلب الى ذلك النور :سكن عند التردد، واطمأن الى ربه فوحّد)) (٢). وكذلك في قوله عن (الدين): ((وإنما صار الهدى (الدين) في مكان آخر ؛ لأنَّه إذا مال القلب الى ذلك النور: دان لله، أي خضع، والدين: هو الخضوع، ومنه قيل للشيء المتضع: (دون) .)) (٣). وفي الدعاء أيضا إذ قال: ((وإنّما صار الهدى في مكان آخر (الدعاء) ؛ لأنَّه إذا دعا إلى الله بقلب مستنير: مالت القلوب إلى ذلك النور؛ لأنَّ على ذلك الكلام نوراً ؛ لأنَّه خرج من قلب مستنير)) (٤).

وفي كل هذه المواضع يرى الترمذي أن الإسلام، والتوحيد، والدين، والدعاء، هي ألفاظ تحمل في طياتها على (الهدى) شرط أن يكون الأصل متحقق وهو الهداية، فالعبد ينقاد ويسلم ويطمئن إلى ربه ويوحد ويخضع ويدين له، ويدعو الله بقلب مستنير، والأصل في كل ذلك عنده هو الميل كما أشار(رحمه الله).

أقول: ولم يستشهد الترمذي بالنصوص القرآنية على حمل لفظة (الهدى) على معنى البيان، وإنما ساق المعنى من غير أن يؤيد هذا الاستدلال بشيء يذكر، ولم يكن متمسكا سوى بالدلالة المعجمية، والحق أن هذا يفتح الباب للاعتراض على ما ذهب إليه، فبعض النصوص القرآنية ظاهرها يحتاج إلى وقفة وتأمل، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ آل عمران: ١٣٨، فعطف الهدى على البيان في الآية الكريمة يعد دليلا على أن الهدى غير البيان ؛ لأن العطف يفيد المغايرة ولا يمكن أن يكونا بمعنى واحد، إذ لا يجوز عطف الشيء على نفسه.

ومما يمكن قوله في هذا المقام إن الترمذي أخذ هذه المعاني التي ذكرت للفظة (الهدى) في كتب الوجوه والنظائر، وعمل جاهداً على إرجاعها إلى معنى مخصوص يمثل أصلاً لغوياً ثابتاً عنده، فهو في بعض المواضع يرى أن عمله يكمن في إظهار الدلالة الأصل بين هذه المصاديق المتعددة من دون التكلف والرجوع إلى سطوة النصوص القرآنية أو الحديثية، وهذا ما نجده واضحاً أيضاً في توجيهه لبعض المعاني توجيهاً وجدانياً صوفياً معرفياً ليس له علاقة من حيث الظاهر بسياقات النصوص، ولكن المعنى عنده منجذب إلى ذلك الأصل وممتد بلا انقطاع.

(١) تحصيل نظائر القران: ٢٠.
(٢) نفسه: ٢٠.
(٣) تحصيل نظائر القرآن: ٢٠.
(٤))نفسه: الصفحة نفسها.

ويرى أحد الباحثين أن هكذا أوضاع (حاصلة بغلبة الاستعمال) شائع في اللغة من غير أن يستلزم المحذور ؛ لأنه من قبيل التوسع في الوضع الأول بتقديره وضعا للأعم من الحقيقة الذاتية، فيكون استعماله في كل من المعاني من قبيل استعمال اللفظ الموضوع للعام في آحاد مصاديقه المتنوعة، وهو من الاشتراك المعنوي الذي لا محذور فيه أصلا[١].

أما مجيء (الهدى) بمعنى البصيرة، فقد قال فيها الحكيم الترمذي: ((وإنما صار الهدى بصيرة في مكان آخر ؛ لأنه إذا دع الداعي بقلب ذي نور: ولج الكلام مع النور في الأسماع فاستنارت الصدور من المستمعين، فأبصرت عيون نفوسهم، وهي بصائرها، فتلك بصيرة النفس، فإن للفؤاد بصراً، وللنفس بصيرةً وكلاهما يبصران في الصدر ؛ لإنّ الصدر ساحة القلب وساحة النفس...))[٢].

والظاهر أن الترمذي في توجيهه لدلالة الهدى بمعنى البصيرة قد خرج خروجاً كلياً وكاملا عمّا عليه أهل اللغة في بيان ودلالة هذه الألفاظ، وكذلك في الإشارة إلى أصلها اللغوي، وهذا ما أشرنا اليه سابقا، فالمرجعية الصوفية كان لها الأثر الواضح في هذا التوجيه ؛ لأنّ المتصوفة يذهبون بعد توافقهم مع أهل اللغة في تقسيم الألفاظ إلى ما هو أكثر من ذلك، فهم لهم زيادات على ذلك، يقول ابن عربي (ت ٦٠٦هـ): ((وأما نحن فنقول بهذا معهم – يعني مع اهل اللغة في تقسيم الألفاظ – وعندنا زوائد من باب الاطلاع على الحقائق من جهة لم يطلعوا عليها علمنا منها أن الألفاظ كلها متباينة، وإن اشتركت في النطق، ومن جهة أخرى أيضا كلها مشتركة وإن تباينت في النطق))[٣]، وهنا نقطة في غاية الأهمية في التحليل اللغوي لها علاقة بالحال أو القرائن الصارفة للمعنى ((فكل مفردة يمكن القول بأنها تحمل معاني مشتركة في باب المشترك اللفظي ماهي من حيث الاستعمال إلا حاملةً معنًى واحداً فقط، إذ لا يمكن أن يكون النص اللغوي مريدا لكل وجوه المعنى من هذه المفردة))[٤]، وعلى ذلك فقول ابن عربي: (الألفاظ كلها متباينة وإن اشتركت في النطق) فما اشترك في النطق واحتمل معاني متعددة إنما يحصل له هذا خارج السياق، أما على مستوى الاستعمال فانه لا يمكن الا أن يحمل معنى واحدا، وبذلك فهي متباينة في الاستعمال وإن كانت مشتركة في الوضع . فالألفاظ ((منها مشتركة وإن كان لكل واحد من المشتركة معنى إذا تبين ظهر أنها متباينة، فالأصل في الاسماء التباين))[٥].

وقد نقل الزركشي (ت٧٩٤هـ) عن ابن فارس أن كل ما في كتاب الله من ذكر (الاسف) فمعناه الحزن ؛ كقوله تعالى: ﴿يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ يوسف: ٨٤

(١))ينظر: التمهيد في علوم القرآن: محمد هادي معرفة: ٦/ ٤٨.

(٢))تحصيل نظائر القران: ٢١.

(٣))الفتوحات المكية: ١/ ١٣٨.

(٤))المقاربة اللغوية في الخطاب الصوفي: د. عقيل عكموش: ٢١٧.

(٥))الفتوحات المكية: ٦: ٢١٢.

إلا قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا﴾ الزخرف: ٥٥ فإن معناه(أغضبونا)، وأما قوله تعالى في قصة موسى (عليه السلام): ﴿غَضْبَانَ أَسِفًا ﴾الاعراف: ١٥٠ فقال ابن عباس :مغتاظا[١].وهذا يعني أن للسياق أثراً واضحاً في إلغاء دلالة الاشتراك، فتكون الألفاظ متباينة في مكانها ومحلها، ولها دلالتها الخاصة كما ذهب إلى ذلك ابن عربي، وهذا ما نريد الوصول إليه، فالترمذي في دلالة البصيرة على الهدى قرأها قراءة خاصة بسياقات معرفية، ووجدانية متعلقة بمعنى البصيرة والإبصار وتعلق ذلك بالقلب والبصر، وعلاقة كل ذلك بالأصل الذي هو (الهدى) فميل القلب عنده هو الأصل في جنوح الجوارح والجوانح، لذا نراه يبتعد من حيث الظاهر عن الدلالة الأصل ؛ لان المحل يستوجب منه أن يحلق في دائرة القدس من أجل الإمساك بالأصول المعنوية لدلالة(الهدى).

أما الدلالات الاخرى التي خرجت اليها لفظة (الهدى) وهي (المعرفة، والقرآن، والرسول، والرشد، والصواب، والتقوى، والتوفيق، والتوبة، والممر) فهي مجتمعة لا تخرج عما ذكرنا لها من معان ودلالات . يقول الترمذي في ذلك: ((فمرجع هذه الأشياء التي صيرت وجوها ذات شعب: ((الى كلمة واحدة، لأن الهدى :هو ميل القلب الى الله بذلك النور الذي اشرق به الصدر، فانشرح وانفسح وهو قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ الزمر: ٢٢)) [٢].

لفظة(الوحي):

يرى الترمذي أن الوحي هو: ((سرعة المجيء يقال لوّح أي أسرع، ويقال هذا أمر وحي أي سريع، ثم في هذا المجيء السريع أشياء تتضمنه منها: ما ضمنه كلامه، ومنها: ما ضمنه النبوة، ومنها ما ضمنه علمه، ومنها: ما ضمنه علم تدبيره وهو الحكمة)) [٣].ثم بين الترمذي هذه الأشياء التي تتضمن هذا المجيء السريع، قائلاً: ((فالوحي الذي ضمّنه كلامه هو (الرسالة)، والوحي الذي ضمنه النبوة هو (النبوة)، والوحي الذي ضمنه علمه هو (الحديث)، والوحي الذي ضمنه الحكمة هو (الإلهام)، فهذا كله وحي سماوي)) [٤]، وزاد في قوله إذا قال لك قائل: ((ذكرت الوحي هو سرعة المجيء، وإنما سمي وحيا لسرعته فما الذي يجيء بهذه السرعة ؟ ...فذلك الشيء الذي ذكرت أنه إنما سمي وحيا لسرعة مجيئه هو الحياة، والرأفة حشو تلك الحياة، والرأفة كلام الله، وغلبة الحياة وقوة الرأفة قد اكتنفتاه، فالكلام كأنه بين لوحين: بين غلبة الحياة وكثافة الرأفة...)) [٥]، ثم استشهد الترمذي بالنصوص القرآنية الدالة على أن الوحي يعني السرعة أو سرعة الإشارة وذلك فيما أوحى زكريا إلى قومه أن يسبحوا الله بكرة وعشيا، وفي قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ

(١))ينظر: البرهان في علوم القران: ١/ ٨٩.

(٢) تحصيل نظائر القرآن: ٢٤ .

(٣) تحصيل نظائر القرآن: ١٤٧.

(٤) نفسه: ١٤٨.

(٥) نفسه: نفسها

رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾الزلزلة:٥ فهو أيضا للسرعة عنده، وفي قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى﴾ القصص: ٧ وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾المائدة: ١١١ وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾النحل: ٦٨، ويعبر عن هذه الآيات الثلاث الأخيرة بقوله: فهذا كله قذف الالهام، فهذا القذف في سرعة طرفة العين، فمرجع ذلك كله الى السرعة[١].

أقول: تذكر مصادر الوجوه والنظائر (للوحي) سبعة أوجه، هي: الإرسال، والإرشاد، والإلهام، والأمر، والقول، وإعلام في المنام، وإعلام بالوسوسة [٢]، وقد أشار الترمذي إلى بعض المعاني في كلامه المتقدم مثل (الإشارة، والإلهام، وإعلام الوسوسة، والرسالة) وغير ذلك مؤكداً على رجوع جميع المعاني والدلالات إلى سرعة المجيء، وهذا يمثل الأصل اللغوي عنده الذي تدور حوله جميع المعاني والدلالات التي خرجت لها لفظة الوحي.

يقول صاحب العين: ((وحى يحي وحيا، أي: كتب يكتب كتبا ... وأوحى اليه: ألهمه ... والوحي: السرعة)) [٣]، ولا يخفى أن السرعة التي أشار اليها الترمذي وجعلها أصلاً لغوياً ثابتا تعود اليه جميع المعاني، قد ذكرها الخليل في نصه المتقدم . أما ابن فارس فأصل الدلالة عنده في هذه المادة هو (إلقاء علم في خفاء) إذ يقول: ((الواو والحاء والحرف المعتل أصل يدل على إلقاء علم في خفاء أو غيره، فالوحي: الإشارة، والوحي الكتابة والرسالة، وكل ما ألقيته إلى غيرك حتى علمه فهو وحي كيف كان ... وكل ما في باب الوحي فراجع إلى هذا الأصل الذي ذكرناه، والوحي: السَّريع، والوحي الصوت)) [٤].

والمتأمل في نص ابن فارس لا يعدم ذكره لمعنى السرعة عنده، وجاء ذلك في آخر النص، إذ أشار إلى دلالة الوحي على السرعة على الرغم من أن الأصل عنده هو (إلقاء علم في خفاء) *، وهذا ما دعا الراغب الأصفهاني (ت ٤٢٥هـ) إلى أن يجعل هذه الأوجه وسائل للوحي، والوحي عنده الإشارة السريعة التي تكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، أو بصوت، أو بإشارة ،أو بكتابة، أو بوسواس، أو بإلهام أو بمنام[٥]، وهو بذلك يجعل للفظ دلالة عامة وأصلا يستغرق الأوجه المذكورة على أنها وسائل لشيء واحد، وليست دلالات مختلفة الأصول.

أما الآيات القرآنية التي استدل بها الترمذي

(١) نفسه: ١٥٠.

(٢) ينظر: الأشباه والنظائر: مقاتل: ١٦٨.، الاشباه: الثعالبي: ٢٦٦. والنزهة: ٦٢١، والمنتخب: ٢٣٧.

(٣) العين (وحي): ٣/ ١٩٣٢ -١٩٣٣ .

(٤) معجم مقاييس اللغة (وحى): ١٠٤٦ .

* فكل ما حصل بهذه الطريقة يسمى وحيا، وهذا ما ينطبق على الإلهام والرؤيا والكتابة والقول والإشارة والرسالة وهذه الأمور ونحوها من طرق الوحي وأنواعه . فكل ما ذكره أهل الوجوه، هو من طرق الوحي أو مرادفاته وليست أوجها له. ينظر: لا وجوه ولا نظائر في كتب الوجوه والنظائر: ٢٤٨-٢٤٩.

(٥) ينظر: مفردات الفاظ القرآن: ٨٥٨.

وحملها على دلالة السرعة، فهي تحمل للوحي معنيين، الأول: الأذن ،والثاني: قذف الإلهام وكلاهما حملهما الترمذي على السرعة، أو سرعة طرفة العين.

وواضح أنه لاسبيل إلى دراسة أي نص في لغة ما، دون فقه لألفاظه في لغته، ثم يكون للنص بعد ذلك أن يحدد لكل لفظ دلالته الخاصة من شتى الدلالات المعجمية، أو يضيف إليها ملحظاً ينفرد به. وقد سعى الترمذي بعد التتبع الدقيق لمعنى لفظة الوحي في المعجمات إلى الوقوف على الدلالة الأصل من بين الدلالات المتعددة، وحاول جاهداً أن يظهر الفرق بين المعنى الأصل الذي هو (سرعة المجيء عنده) وبين وسائل الوحي وطرقه الأُخر التي جعلها أصحاب كتب الوجوه والنظائر وجوها للوحي، وهي تمثل عنده طرقاً ووسائل ومظاهرا للوحي تعود كلها إلى سرعة المجيء، فالأصل فيها واحد.

٢-في الأفعال:

لفظة (أَحَسّ):

قال الترمذي: ((أحس على كذا وجه: فالإحساس هو علم النفس، وهو وجود النفس خبر الاشياء، وإنما سميت الحواس الخمس حواسا ؛ لأنهن يجلبن الخبر إلى النفس))[١]. وصارت (أحس) بمعنى (عرف) ؛لأن النفس عرفت ما عاينت، ولم يكن للنفس مجاوزة، ووجود السبيل إلى ما يجد القلب، ومعرفة القلب يقين، ومعرفة النفس الحس[٢].

قال الخليل: ((الحسَ: القتل الذريع، والحس: إضرار البرد الأشياء ...وبات فلان بحسة وسوء أي: بحال سيئة وشدة ...وأحسست من فلان أمراً أي: رأيت وعلى الرؤية يفسر قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ آل عمران: ٥٢، أي رأى ... وتحسست خبراً: أي سألت وطلبت))[٣].

ويظهر أن الترمذي في نصه المتقدم قد أكد على معنى واحد هو إحساس النفس وعلمها بالأشياء، ومرد ذلك إلى ما تتحسسه تلك النفس بوساطة الحواس، بلحاظ أن هذه الحواس يجلبن الخبر إليها، وجعل هذا الإحساس هو الأصل الذي تعود إليه المعاني الأخرى . ولم يكن للحس المعنوي، أو المعرفي من أهمية تذكر في هذا المقام على الرغم من أنه قد حمل معنى (أحس) على معنى(عرف) و(رأى) و(تخبر)، ففي هذه المواضع الثلاثة قد حمل (عرف) على معرفة النفس، ورأى على رؤية النفس، وتخبر أي طلب الخبر الخفي ؛ لأنّ الحس هو خبر خفي لطيف.

ومن لطائف الخليل بن أحمد الفراهيدي أنه في معجمه يتحسس دلالات الألفاظ، ويقف عند المهم منها، على الرغم من الاستقراء الكثير للسياقات اللغوية، فالحس عنده القتل، والحالة السيئة والرؤية

(١) تحصيل نظائر القرآن: ١٢١.

(٢) نفسه: الصفحة نفسها.

(٣) معجم العين: ١/ ٣٨٢- ٣٨٣.

والمعرفة، وفي ذلك تنوع سوى أن مرجعه يكاد أن يكون واحداً. فالأصل في المادة هو الإحاطة والغلبة روحاً وفكراً وقدرةً.((وهذا المعنى يختلف باختلاف المصاديق، والموارد، فقد يكون بالشعور والفهم، أو بطريق الظن والعلم، أو من جهة النفوذ، والقدرة ،والسلطة ،أو من جهة القوى والحواس))[١].

وهذا ما جعل الترمذي يحمل (أحسّ) على معنى (عرف) أو على معنى (رأى) كما يرى الخليل. ويبدو أن الترمذي لا يريد بـ(عرف) المعرفة القلبية وإنما أراد المعرفة الظاهرة المرتبطة بالحس، أي فلما رأى عيسى (عليه السلام) بعض مصاديق الكفر من قومه قال من أنصاري إلى الله؟ وكان الخليل أكثر دقة في ذلك حينما حدد معنى(أحسّ) بـ(رأى)، فالرؤية هنا مرتبطة بالحواس والظاهر، وهذا ما أراده الترمذي .

قال الجوهري: ((والحواس المشاعر الخمس :السمع، والبصر ،والشم، والذوق، واللمس... وأحسست معناه: ظننت ووجدت ،ومنه قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ ال عمران: ٥٢))[٢].وهذا ما دعا ابن فارس إلى حمل (أحس) على معنى التوجع في الأصل الثاني عنده، ففي الإحساس ألم ووجع، يقال: حسست له فأنا أحس إذا رققت له، كأن قلبك ألم شفقة عليه [٣].يقال: ((حسست به إذا أحاط شعورك به، وحسه السيف إذا غلب قدرته ونفوذه وأحاطت به، وأحس الشيء إذا علم به وعرفه، والحسّ الوجع المحيط ...وحسست له إذا أحاطت شفقتك عليه)) [٤]. أما المعنى الثاني الذي حمل الترمذي (أحس) عليه فهو (رأى) في قوله تعالى:(كما يقول المحقق): ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ مريم: ٩٨، أي هل ترى، وهذا عنده قريب من (أحس) بمعنى (عرف) المتقدمة ؛ لأن الرؤية عنده هنا هي رؤية النفس أيضا[٥]. ومرجع هذا المعنى إلى العلم، أي الإحاطة من النفس حتى يحصل العلم.

يقول الراغب الأصفهاني: ((أحسسته فحقيقته: أدركته بحاستي ...وقوله تعالى: ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾مريم: ٩٨، أي تجد بحاستك أحداً منهم...)) [٦].وكذلك معنى الخبر والتخبّر الذي حمل الترمذي معنى (أحسّ) عليه في قوله تعالى: ﴿اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾يوسف: ٨٧.، أي تخبروا واطلبوا الخفي من خبر يوسف (عليه السلام) فإن الحسّ هو خفي لطيف[٧]. فالتحسس طلب الشيء بالحواس، ولابد فيه من ملحظ استعمال ما يتاح من الحواس المناسبة [٨].وهذا ما ذهب إليه الزمخشري في قوله: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ أي فلما علم منهم

(١) التحقيق في كلمات القرآن: ٢/ ٢٥٥.
(٢) الصحاح: ٢٣٨.
(٣) معجم مقاييس اللغة: ٢٢٤.
(٤) التحقيق في كلمات القرآن: ٢/ ٢٥٥.
(٥) ينظر: تحصيل نظائر القرآن: ١٢٢.
(٦) مفردات الفاظ القرآن: ٢٣٢.
(٧) ينظر: تحصيل نظائر القرآن: ١٢٢.
(٨) ينظر: المعجم الاشتقاقي المؤصّل لأفاظ القرآن الكريم: د.محمدحسن حسن جبل:١/ ٤٢٥.

الكفر علما لا شبهة فيه كعلم ما يدرك بالحواس[١].

لفظة(باءوا):

أرجع الترمذي هذه المادة بحسب المنهج المتبع عنده في إرجاع الوجوه إلى أصل واحد متفق عليه إلى ثلاثة معان الأول: هو استوجب ؛ لأن الوجوب عنده هو السقوط والحلول، أي: يقال للشمس إذا غربت قد وجبت، وكذلك في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا﴾ الحج: ٣٦ يرى الترمذي أي: سقطت وحلت بالأرض .والمعنى الثاني هو النزول والنزول عنده قريب من السقوط، أي من المعنى الأول . والمعنى الثالث هو (التوطن) ؛ لأن التوطن هو حلول اي فإذا حل وثبت فقد توطن[٢].

وذكر أصحاب الوجوه والنظائر أن (باؤوا) قد جاء في القرآن الكريم على أربعة أوجه هي: استوجبوا، ونزل، وتوطن، ورجع[٣]. والظاهر أن الترمذي لم يختلف معهم في ذلك . إلا أن الوجوه عنده متطابقة على الرغم من اختلاف السياقات القرآنية الواردة فيها لفظة(باؤوا)، فالنزول والتوطن والرجوع والاستيجاب مردها واحد . وهذا المعنى أي معنى(بوأ) أو (باء) لم يختلف عليه أصحاب المعجمات أيضا، فالخليل يرى: أنّ الباءة والمباءة هي منزل القوم حين يتبوؤن، بل هو كل منزل ينزله القوم . وقد حمل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾يونس: ٩٣، على ذلك أي منزل صدق[٤]. ونقل الجوهري معنى الرجوع أيضاً مستشهداً بقول الأخفش حين قال: ((وباءوا بغضب من الله: رجعوا به، أي صار عليهم . قال وكذلك باء بإثمه يتبوأ بوءا)) [٥]. وحمل الراغب الأصفهاني قوله تعالى: ﴿ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ الانفال: ١٦، على الحل أي: حل مبوأ ومعه غضب الله، أي: عقوبته[٦].

فالأصل لاستعمالات هذا التركيب هو حيز الاستقرار مهيأ ومسوى، أو مناسب لما يستقر فيه يقول الدكتور محمد حسن جبل: ((ومن استعمال المباءة وغيرها في المنزل والمقر أخذ معنى الرجوع ؛ من حيث إن المنزل أو المقر هو المرجع الذي يرجع اليه من فارقه ...فكأن من قال: باء الى مكان، يقول: استقر فيه، ومن الاستقرار أيضا قالوا: (باء) بمعنى احتمل وأقر واعترف، وهي كلها متقاربة))[٧].

وقد جاءت في القرآن الكريم من استعمالات هذا الجذر صيغتان (باء بـ) كقوله تعالى: ﴿كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ﴾ آل عمران: ١٦٢ . أي يريد بكفر، أو تحول، أو تولَّ، أي رجعوا بالسخط بسبب كفر، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ المائدة: ٢٩.

(١) ينظر: الكشاف: ١/ ٣٥٩.

(٢) ينظر: تحصيل نظائر القرآن: ٤٥-٤٦.

(٣) ينظر: الوجوه: هارون بن موسى القارىء:٣٨.، والوجوه والنظائر :أبو هلال العسكري: ٨٥. والوجوه والنظائر: الدامغاني: ١٢٣.

(٤) ينظر: معجم العين: ١/ ٢٠٠.

(٥) الصحاح: ١١١.

(٦) ينظر: المفردات: ١٥٩.

(٧) المعجم الاشتقاقي: ١/ ٦١.

أي تنصرف متحملها، وترجع بهما قد صارا عليك دوني . أما الصيغة الأخرى فهي (بوَّأ) وكلها بمعنى الإقرار في مكان مهيَّأ مناسب كما ذكرنا سابقا، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ الأعراف: ٧٤ ،وقوله تعالى: ﴿تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ آل عمران: ١٢١ ،وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ ﴾الحج: ٢٦ . يقول العلامة المصطفوي: ((إنَّ الأصل الواحد في هذه المادة هو الرجوع الى السفل، أي الانحطاط والتنزل ... أما الرجوع المطلق، والحمل، والتزويج، والإسكان، والرد والتساوي ... فكلها معاني مجازية إلا أن يلاحظ فيها مفهوم الرجوع في تسفِّل حتى تكون من مصاديق الأصل))[1].

ويبدو أنَّ هذه المعاني لم تكن ببعيدة عما ساقه الترمذي، فالاستيجاب والنزول والتوطن، هي الوجوه الأصل لهذه المادة، ويلحظ فيها معنى النزول والاستقرار والسكينة، فكلها لها رباط واحد وجامع مشترك هو الحلول والنزول والسقوط، ومدار ذلك أصل ومرجع واحد لا كما زعم أصحاب الوجوه والنظائر أنَّ لهذه المادة وجوها، أي من حيث الظاهر أنَّ هذه الوجوه تمثل اختلافا، ومعاني غير مجتمعة وغير متطابقة، وهذا ما سعى إليه الترمذي جاهدا في بيان الدلالة الأصل مستدلا بما ذهب إليه أهل اللغة فضلا عن السياقات القرآنية المتعددة .

(١) التحقيق: ١/ ٣٧٩ .

٣- في الحروف:

(إنْ) المخففة من الثقيلة .

يرى الترمذي أنَّ (إنْ) حرفين من حروف المعجم، وفي الألف القوة، وفي النون القوام ؛ لأن الأصل القوة فيها، فإن طلب طالب من أين هذا ؟ قيل له: هذه الحكمة العليا وهي حكمة الحكمة[2]. ثم زاد الترمذي قائلا: ((فإنَّ العلوم كلها في حروف المعجم ؛ لأن مبتدأ العلم: أسماء الله، ومنها خرج الخلق والتدبير في أحكام الله في حلاله وحرامه، والأسماء من الحروف ظهرت، والى الحروف رجعت، فهذا مخزون من العلم ... فقوله (إنْ) إنما هو ألف ونون مخففة، فالألف عماد، والنون قوام، فربما احتاج أمر الى قائمتين فزيد نونا أخرى، فاندغمت إحداهما في الأخرى، فاشتدتا فقيل: (إنَّ مشددة)، وربما استغنى بأحدهما عن الأخرى كقوله (إن) مخففة، فما كانت مشددة فمن قوتها عملت في الأسماء فنصبتها، وما كانت مخففة لم تعمل في الأسماء وحلت محل (ما) كقوله تعالى: ﴿ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ الملك: ٢٠ . يقول: ما الكافرون إلا في غرور، وإذا اشتدت بأن صارت نونين نصبت الاسم كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ التوبة ٦٧))[3].

وقد فُسِّرت (إنْ) في كتب الوجوه والنظائر على ستة وجوه [4]: بمعنى (إذ) و(ما) و(لقد) و(لئلا)

(٢) ينظر . التحصيل: ١٠٤ .

(٣) التحصيل: ١٠٥ .

(٤) ينظر . التصاريف: ١٩٥، وإصلاح الوجوه: ٥٢، نزهة الأعين: ٢٩ .

و(بأن) و(إنَّ) بعينها . ولم يبين لنا أصحاب هذه الكتب أي وجه من وجوه (ما) مثلا، الذي تأتي (إنْ) بمعناه ؛ لأنَّ (ما) نفسها لها عدة أوجه، وكذلك لم يبينوا لنا الوجوه الأخرى، فقد سردوا لنا هذه الأوجه نقلا عن بعضهم بلا تحقيق وتمحيص، وقد بدا ذلك واضحا في الوجه الأخير الذي جعلوا فيه (إنْ) المخففة النون بمعنى (إنَّ) المشددة النون، وليس في ذلك أدلة تذكر . قال الهروي(ت٤١٥هـ) عن مجيء (إن) بمعنى(إذ): ((معناه عند بعضهم: إذ كنتم مؤمنين ؛ لأن الخطاب للمؤمنين، ولو كانت (إن) للجزاء لوجب أن الخطاب لغير للمؤمنين، وقال بعضهم: (إن) فيها للجزاء، كأنه قال: من كان مؤمناً ترك الرياء، ومن كان مؤمناً لم يخش إلا الله))[1].ويرى المرادي(ت٧٤٩ه) أنه لم يثبت في اللغة أن (إن) بمعنى (إذ)، وأما قوله تعالى: ﴿﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ البقرة: ٩١، فقيل: (إن) فيه شرط محض ؛ لأنها أنزلت في ثقيف، وكان أول دخولهم في الإسلام، وإن قدرنا الآية فيمن تقرر إيمانه، فهو شرط مجازي على جهة المبالغة))[2].

ويبدو أن الترمذي وإن أشار في آخر كلامه إلى مجيء (إن) بمعنى (ما) النافية وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ الملك: ٢٠، وإن اشتدت أو ضُعِّفت نصبت الاسم وكانت حرفاً مشدداً وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ التوبة: ٦٧،قلنا وإن أشار إلى ذلك فقد وجه هذين الحرفين وجهة أخرى بعيدة من حيث الظاهر عمّا ذهب إليه اللغويون والنحاة قائمة على ركيزة ومرجعية صوفية عمادها وقوامها واضح بين، ففي الألف عنده قوة وعماد وفي النون قوام، وقد عزز ذلك بقوله (هذه الحكمة العليا) وقد علل ذلك بأن العلوم كلها في حروف المعجم ومبتدأ العلم عنده أسماء الله، والأسماء من الحروف ظهرت وإلى الحروف رجعت وهذا مخزون من العلم عنده .وقد شاع ذلك عند المتصوفة فيما يتعلق بنظرتهم الى حروف اللغة، وما يقف وراء هذه الحروف من أسرار ودلالات لا يقف عليها إلا هم، قال أحدهم: ((اعلم وفقنا الله وإياكم أنّ الحروف أمة من الأمم مخاطبون ومكلفون، وفيهم رسل من جنسهم، ولهم أسماء من حيث هم، ولا يعرف هذا إلا أهل الكشف من طريقتنا))[3].

وتتلخص الفكرة عندهم في أن مراتب الوجود كلها قد صدرت عن النّفس الإلهي، وقد صدرت كل مرتبة عن اسم إلهي خاص، وارتبطت بحرف من حروف اللغة، وجد بدوره عن هذا الاسم الإلهي، ومعنى ذلك أن هناك توازيا بين مراتب الوجود، والأسماء الإلهية من جهة، وبينها وبين حروف اللغة من جهة أخرى[4]. زد على ذلك أنّ لحرف الألف من القوة ما ليس لجميع الحروف، بل

(١) الأزهية في علم الحروف: ٤٦-٤٧.

(٢) الجنى الداني في حروف المعاني: ٢١٣.

(٣) الفتوحات المكية: ابن عربي: ١/ ٩٥.

(٤) ينظر: نفسه: ٤/ ١١٥، وفلسفة التأويل عند محي الدين ابن عربي:د. نصر حامد أبو زيد: ٣٠٢-٣٠٣.

هو يعم الحروف جميعا بفضله، والألف رمز للأحدية والذات المقدسة[١].فكل حرف من حروف اللغة لا يمكن أن تظهر صورته نطقا من مخرجه إلاّ بوساطة الألف، وكل حروف اللغة ترتد في حقيقتها إليه، وبذلك فهو يعم المخارج والحروف كلها، فكل حرف محتاج بنفسه الى الالف، والالف غني عن سواه من الحروف [٢]؛ لذا نرى الترمذي يقول: ((فهناك كشف الغطاء عن هذه الحروف، وعن الصفات صفات الذات))[٣].

وخلاصة القول فيما تقدم عن الترمذي أنه أراد الإشارة إلى أنه لايزال متمسكاً بالمنهج الذي سار عليه في كتابه التحصيل وهو منهج الأصل اللغوي حتى وإن خرج الحديث عن الأصل اللغوي من حيث الظاهر، فقد أرجع في حديثه عن الألف والنون في كلمة (إن) كل الحروف إلى حرف الألف وجعله أقوى الحروف وعمادها في سلم الأسماء، وجعل (النون) قوام الحروف، وهذا يحمل في طياته فكرة الأصل سواء أكانت هذه الفكرة قائمة على الأفعال أم الأسماء أم الحروف وسواء قيست هذه الحروف بعرف اللغويين أم بعرف أصحاب التصوف والتذوق يبقى اختيار الأصل ودوران المادة حول القطب هو المحور الذي أدار عليه كتابه التحصيل .ولعل الحكيم الترمذي يلجأ إلى ذلك حين لا يسعفه التمسك بظاهر الأصل اللغوي، وهذا يعني أن هذه الفكرة تمثل عنده معتقدا تجري عليه كل الممكنات اللغوية وغير اللغوية بما يسعفها من قرائن حالية ومقالية ومقامية.

٤- في الظروف: لفظة (أنّى)

يرى الترمذي أن (أنى) تقع على الصفات أي على كيف، ومن أين، ومن القائم كالاستفهام[٤]. ولم يزد الحكيم الترمذي على ذلك شيئا، ولم يتناول من الظروف في كتابه التحصيل سوى (أنى) لذا كنت مضطرا إلى الوقوف عندها بلحاظ تغير الصيغ واختلافها من الاسمية والفعلية والحرفية والظرفية.

ذكر هارون بن موسى القارئ ،والدامغاني أن (أنى) جاءت في القرآن الكريم على ثلاثة أوجه هي: بمعنى (كيف) وأنّى بمعنى(من أين) وأنّى بمعنى(آناء يعني الساعات) [٥]. واقتصر أبو هلال العسكري على الوجهين الأولين ثم قال ما قاله ابن قتيبة: ((والمعنيان متقاربان يجوز أن يتأول في كل واحد منهما الآخر))[٦].

واستعملت (أنى) بمعنى (حيث وأين) وهما ظرفا مكان كالإناء، وبمعنى كيف معهما، وهذا من ذينك، إذ حقيقته استفهام عن حال الوجود أي الوقوع والتحيز في مكان . وزاد أحد الباحثين أن

(١) ينظر: رسائل ابن عربي / كتاب الالف: ١٢.
(٢) ينظر: المقاربة اللغوية في الفتوحات المكية:: ٩٣.
(٣) تحصيل نظائر القرآن: ١٠٥.
(٤) نفسه: ١٠٥.
(٥) ينظر: الوجوه والنظائر: هارون:٩٠، والوجوه والنظائر: الدامغاني: ١/ ١١٢.
(٦) تأويل مشكل القرآن: ٤٠٠. وينظر: الوجوه والنظائر: العسكري: ٧٢.

(أنى) أعم في اللغة من (كيف) ومن (أين) ومن (متى)[1]. ويرى الكفوي أنّ (أنّى) تحتمل كل المعاني في قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾البقرة: ٢٢٣، لكن لما كانت كلمة (أنى) مشتركة في معنى كيف وأين، وأشكل الاتيان في الآية تأملنا فيه فظهر أنه كيف بقرينة الحرث[2].

وخلاصة رأي العلماء في (أنى) أنها تقع على كيف ،ومن أين، ومتى، ومدار ذلك هو الاستفهام المتشكل في (أنى) وإن اختلفت السياقات في مجيء هذا الظرف، وهذا يعني كما يرى الحكيم الترمذي أن المدار والأصل في ذلك واحد معبر عنه بصيغ مختلفة.

نتائج البحث

١-تبين من خلال البحث أن فكرة الأصل اللغوي لها جذورها الممتدة من الخليل بن أحمد الفراهيدي صعودا إلى ابن قتيبة، فابن جني، وابن فارس، وابن درستويه وغيرهم من العلماء سوى أنهم لم يصرحوا بذلك.

٢-يظهر من خلال البحث أن هؤلاء اللغويين المتقدمين وإن شاعت عندهم فكرة الأصل اللغوي من خلال التقليبات أو غيرها سوى أنهم لم يصرحوا بكونه منهجا أو سياقا يمكن الاعتماد عليه في بيان دلالة المفردات، ولم يسمّ أحد منهم هذه الفكرة (أي فكرة الأصل اللغوي) بالمنهج.

٣-يعد الحكيم الترمذي أول من كتب كتابا في النظائر القرآنية، قائم على أصل واحد تعود إليه كل السياقات القرآنية، وإن اختلفت في الاستعمال.

٤-يبدو أن ابن فارس قد تأثر بالحكيم الترمذي في بناء معجمه (المقاييس) على أصول متعددة، غير أنه لم يكن متشددا في إرجاع المفردات إلى أصل واحد، فربما يتعدد عنده الأصل إلى اثنين، أو ثلاثة، أو أربعة في المادة الواحدة.

٥-لم يكن الأصل اللغوي عند الحكيم الترمذي مختصاً بمجموعة من الألفاظ دون غيرها، فقد تنوعت الألفاظ عنده من الأسماء، والأفعال، والحروف، والظروف، وكتابه التحصيل قائم على أكثر من ثمانين لفظة كلها تحكي دلالة هذا الأصل باختلاف الأساليب.

٦-أحسب أنَّ الحكيم الترمذي لم يكن موفقا إلى حدّ ما في بيان دلالة الأصل اللغوي في الحروف والظروف، وكان مختصرا في ذلك، فلم يتناول في كتابه هذا إلا حرفاً واحداً هو (إن) وظرفاً واحداً هو (أنَّى)، ولعل مرد ذلك عنده أن الحروف والظروف أقل نصيبا وحظا في الاشتقاق وبيان الدلالة الأصل من الأسماء، والأفعال التي تنوعت صيغها وتعددت أساليبها وسياقاتها مما يعطي القارىء تصورا وبيانا أكثر دقة ووضوحا.

٧-كان لمرجعيات الحكيم الترمذي الأثر الواضح في تناول بعض الألفاظ، وأقصد في ذلك المرجعيات

(١) ينظر: المعجم الاشتقاقي: جبل: ٤/ ٢١٤٠.
(٢) ينظر: الكليات: ١٦٢.

الأخلاقية، والصوفية، فقد مال إلى توجيه كثير من الألفاظ بلحاظ هذه المرجعيات، لذا كان التوجيه في بعض الأحيان يحتاج إلى تأويل، وترجيح ودقة وبيان.

٨-ومما يمكن قوله إنَ الاحتمال الدلالي يعد ركيزة أساسية في الاستعمال القرآني، وهذا الأمر يتعارض إلى حدّ ما مع الأصل اللغوي ؛ لذا ابتعدنا عنه في بحثنا من أجل تسليط الضوء على جهد الحكيم الترمذي في إظهار هذا الأصل، ومدى فاعلية هذا الأصل في بيان المعنى، ولا شيء غير المعنى.

٩-حاول الحكيم الترمذي جاهدا أنَ يؤسس في منهجه هذا إلى إلغاء فكرة الاشتراك اللفظي والتضاد في الاستعمال القرآني، ومتمسكا بالفروق اللغوية، ثم باحثا عن جامع مشترك لتلك المعاني والوجوه المختلفة.

١٠-أستطيع القول إنَّني لم أقف على دراسة واحدة سلطت الضوء على جهد الحكيم الترمذي في بيان الأصل اللغوي سوى بعض الإشارات في المنهج عند الدكتور عبد العال سالم مكرم في كتابه(المشترك اللفظي في ضوء غريب القرآن) من دون أي تحليل ودراسة تدفع باتجاه هذا المنهج وتبين آثاره، وقد أشرت الى ذلك في المبحث الأول من الدراسة.

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم

١. الأزهية في علم الحروف، الهروي، علي بن محمد (ت٤١٥هـ)، تحقيق: عبد المعين الملوحي، مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٧١م.

٢. الأشباه والنظائر في الألفاظ القرآنية التي ترادفت مبانيها وتنوعت معانيها: الثعالبي، عبد الملك بن محمد (ت٤٢٩هـ) ،تحقيق: محمد المصري، دمشق ١٩٨٤.

الأشباه والنظائر في القرآن الكريم، مقاتل بن سليمان البلخي (ت١٥٠هـ)، تحقيق: د.عبد الله محمود شحاته، الهيأة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٣٩٥ هـ-١٩٧٥م.

٣. الاشتراك اللفظي في القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق، محمد نور الدين المنجد، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٩٩م.

٤. إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، الحسين بن محمد الدامغاني (ت ٤٨٧هـ)، تحقيق: عبد العزيز سيد الأهل، ط٣، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، ١٩٨٠ .

٥. البحر المحيط في أصول الفقه، الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله (ت٧٩٤هـ)، تحقيق: د. عمر سليمان الأشقر، راجعه: عبد الستار أبو غدة، ود. محمد سليمان الأشقر، الكويت، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٩٨٨م.

٦. البرهان في علوم القرآن، الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله (ت٧٩٤هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط١، ١٩٥٧م.

٧. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي (ت ٨١٧هـ)، تحقيق: محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م .

٨. تاج اللغة وصحاح العربية المسمى (الصِّحاح)، الجوهري، إسماعيل بن حماد (ت٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطّار، مطابع دار الكتاب العربي، مصر، د. ت.

٩. تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (ت٢٧٦هـ)، تحقيق: السيد احمد صقر، المكتبة العلمية،ط٣، بيروت- لبنان، ١٩٨١م.

١٠. تحصيل نظائر القرآن للحكيم الترمذي، تحقيق وضبط: حسني نصر زيدان، ط١، ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م .

١١. التحقيق في كلمات القرآن الكريم، تأليف المحقق المفسر العلامة المصطفوي، مركز آثار العلامة المصطفوي، القاهرة - لندن،ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ٢٠٠٩م.

١٢. التصاريف: يحيى بن سلام المغربي (ت ٢٠٠هـ)، تحقيق: هند شلبي تونسي، ١٩٨٠

١٣. تفسير رسالة أدب الكاتب:عبد الرحمن بن اسحاق الزجاجي، جامعة دمشق،د.ت.

١٤. التمهيد في علوم القرآن: محمد هادي معرفة: العلامة محمد هادي معرفة ،دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٤٣٢هـ-٢٠١١م.

١٥. الجنى الداني في حروف المعاني ،المرادي، حسن بن قاسم (ت٧٤٩هـ)، تحقيق: فخر الدين قباوة، والأستاذ محمد نديم فاضل، ط١،دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ١٩٩٢م.

١٦. الخصائص، ابن جني، أبو الفتح عثمان (ت٣٩٢هـ)، تحقيق: محمد علي النجار،ط٢ دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، ١٩٦٣م.

١٧. الدلالة المحورية في معجم مقاييس اللغة دراسة تحليلية نقدية: د. عبد الكريم محمد حسن جبل، دار الفكر دمشق، المطبعة العلمية ط١، ٢٠٠٣.

١٨. رسائل ابن عربي (كتاب الالف) الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي (ت٦٣٨هـ) دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د.ت.

١٩. العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٥هـ)، تحقيق : د . مهدي المخزومي ود . إبراهيم السامرائي، دار الحرية للطباعة، بغداد ،١٩٨٦.

٢٠. الفتوحات المكية، محيي الدين بن عربي (ت ٦٣٨هـ)، تحقيق وتقديم: عثمان يحيى، تصدير ومراجعة: د. إبراهيم مدكور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ١٤٠٥-١٩٨٥م.

٢١. فلسفة التأويل ؛دراسة في تأويل القرآن عند محيي الدين ابن عربي: د. نصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب ط٦، ٢٠٠٧م.

٢٢. القاموس المحيط، الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت٨١٧هـ)، دار الجيل، بيروت، د. ت.

٢٣. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر(ت ٥٣٨هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان، ط٢، ٢٠٠١م.

٢٤. كشف السرائر في معنى الوجوه والاشباه والنظائر :ابن العماد ،محمد ابن محمد بن علي، (ت٨٨٧هـ)، تحقيق: د. فؤاد عبد المنعم أحمد، الاسكندرية ١٩٧٤.

٢٥. الكُلّيات، معجم في المصطلحات والفروق اللّغوية، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني القريميّ الكفوي (ت١٠٩٤هـ)، تحقيق: د. عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت- لبنان، ط٢، ٢٠١١م.

٢٦. لا وجوه ولا نظائر في كتب الوجوه والنظائر/ الدكتور عبد الجبار فتحي زيدان، ط/ ١، مكتبة الجيل، الموصل ،٢٠١٣م .

٢٧. المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحقّ بن غالب بن عطية الأندلسي (ت٥٤٦هـ)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

٢٨. المشترك اللفظي في ضوء غريب القرآن الكريم ،د.عبد العال سالم مكرم، (د.ط)، عالم الكتب، القاهرة، ٢٠٠٩م .

٢٩. المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم مؤصل ببيان العلاقات بين ألفاظ القرآن الكريم بأصواتها ومعانيها / الأستاذ الدكتور محمد حسن حسن جبل، ط/ ١، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠١٠ .

٣٠. معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، أبو الحسين احمد بن فارس،تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، القاهرة، ١٩٧٩م.

٣١. مفردات ألفاظ القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد بن الفضل الراغب الأصفهاني (ت في حدود ٤٢٥هـ)، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، ط٤،مطبعة كيميا،قم،إيران، ١٤٢٥ه.

٣٢. المقاربة اللغوية في الخطاب الصوفي الفتوحات المكية أنموذجا : د. عقيل عكموش العنبكي، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت لبنان، ط١، ٢٠١٣.

٣٣. من تجارب الأصوليين في المجالات اللغوية، السيد محمد تقي الحكيم، المؤسسة الدولية للطباعة، بيروت- لبنان، ٢٠٠٠م.

٣٤. منتخب قرة العيون النواظر في الوجوه والنظائر في القرآن الكريم: ابن الجوزي، تحقيق: محمد السيد الصفطاوي ود. فؤاد عبد المنعم أحمد،

الاسكندرية ١٩٧٩.

٣٥. المنتخب من غريب كلام العرب ،لأبي الحسن علي بن الحسن الهنائي المعروف بكراع النمل (ت٣١٠هـ) تحقيق: د. محمد بن أحمد العمري، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية ط١، ١٤٠٩-١٩٨٩م.

٣٦. المواقف والمخاطبات، محمد بن عبد الجبار النفري (ت ٣٥٤هـ)، تصحيح آرثر يوحنا أبري، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٣٤م.

٣٧. نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر / أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن الجوزي (ت ٥٩٧هـ)، دراسة وتحقيق: محمد عبد الكريم كاظم الراضي، ط/٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .

٣٨. الوجوه والنظائر في القرآن الكريم (يبحث في معاني كلمات القرآن الكريم التي تشترك في اللفظ والنطق والرسم وتختلف في المعاني) / أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري (ت في حدود ٤٠٠هـ)، تحقيق: أحمد السيد، ط/ ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت، ٢٠١٠م .

٣٩. الوجوه والنظائر في القرآن الكريم/ هارون بن موسى (ت١٧٠هـ)، تحقيق: د.حاتم صالح الضامن، (د . ط)، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م .

٤٠. الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز / أبو عبد الله الحسين بن محمد الدامغاني (ت ٤٧٨هـ) تحقيق :محمد حسن أبو العزم الزَّفيتي، القاهرة، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.